سهل بن هرون (١)

﴿ مَنْبِتُهُ ونَسَبُهُ ﴾ ولد سهل بن هرون (٢) في مدينة ميسان بين واسط والبصرة ، وفي رواية في دستميسان كورة بين الاهواز وواسط والبصرة ، في اواخر النصف الاول من القرن الثاني تقديراً ، ولا يعرف من نسبه الا انهُ سهل بن هرون بن راهيون (راهبون) وكنيتهُ ابو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي اوخوزي المولد ، عراقي المنشأ . تحول الى البصرة في سنٍّ لم تعرف ، وكانت البصرة اذ ذاك مدينة العلم في الدولة الاسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كلهِ ، او كما قيل فيها « قبة الاسلام وخزانة العرب » ، حوت من حصائل العلم الانساني اصولهُ وفروعهُ ، ومن القائمين على تمحيصهِ مصاقعهُ وفحولهُ ، فتغذى روحهُ بايمان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقلهُ بما اقتبسهُ من نور معارفها ، فتخرج بعلمائها ، ولا شك انهم كانوا طبقة عالية جداً ، في كل مطلب من مطالب الآداب

وكانت البصرة بل المملكة الاسلامية اخذت في تلك الحقبة ، تمتازج فيها مدنية العرب بمدنية الفرس والروم والهند ، وبدأت المذاهب الفلسفية تتسرب في المجتمع الاسلامي ، وعلماء الامة يتصاورهم الجزر والمدّ على شاطئ بحر الحكمة القديمة ، شأن مدينة البصرة مع خليجها ، يمد ماؤها ويجزر على الدوام ، وما زالوا هذا حالهم يغوصون في بحار الافكار ، حتى اخرجت عقولهم دراً غريبة ، كما يخرج بحرهم الجواهر واللآلي الثمينة النادرة . وكانت النفوس حريصة على الدين الذي دوّن وحرر ، راغبة كل الرغبة في الاخذ مما لا عهد لها بهِ من علوم الامم السالفة . وفي هذا المحيط انبعث عقل سهل بن هرون لاول امره ، في ارض صالحة لانماء العقل واطلاقهِ من قيودهِ ، ولم

(١) محاضرة للسيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق القاها في ردهة المجمع يوم ٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٩٢٦ (٢) لم يترجم لسهل بن هرون القفطي في اخبار الحكماء ولا ابن خلكان في وفيات الاعيان ، ولا البيهقي في حكماء الاسلام ، ولا السمعاني في الانساب ، ولا ابن الانباري في طبقات الادباء . وترجم له تراجم موجزة كل من الصفدي في الوافي بالوفيات ، والصلاح الكتبي في فوات الوفيات وفي عيون التواريخ ، وابن تيمية في شرح رسالة ابن زيدون ، وابن بدرون في شرح قصيدة ابن عبدون ، والثعالبي في المضاف والمنسوب . وترجم له كرامر الهولاندي من علماء المستشرقين في المعلمة الاسلامية ، واقتصر على ما قاله المترجمون فيه وقاله انه كان من رجال الرشيد وقال انه لم يجتمع بالجاحظ مع ان الجاحظ يروي عنه كثيرا في كتبه المطبوعة

يُعرف اذا كان سهل رحل الى الروم وفارس والشام ومصر، والغالب انهُ لم تتعد تنقلاتهُ مدينة الرقة قصبة ديار مضر، والرصافة رصافة هشام في اول تخوم الشام، واكثنى بالبصرة وبغداد. وجميع هذه المدن الاربع الرصافة والرقة وبغداد والبصرة هي من بناء العرب. وكانت بغداد أجمل مدن الارض في ذاك العصر، وفيها كل شيء جديد سواء أكان ذلك في خططها ومرافقها، او في عقول اهلها ونبوغ علمائها، تحمل اليها من الآفاق بدائع ما صنع البشر ونتجت عقولهم. والدول سوق يحمل اليها ما يروج فيها

لا نعلم على التحقيق منشأ والد سهل، ولا مظهره ومذهبه، ولا اصل أم سهل وتربيتها، ولا معلمهِ في بلدهِ، ولا اساتيذهُ في البصرة، ولا اترابه ولداتهِ في صباه، ولا غير ذلك من العوامل التي لها الشأن الاكبر في تربية الملكات، وتلقين الاخلاق والعادات. يُنشأ عليها الفتى فتطبع حياتهُ بطابع خاص، تتعذر في عقود العمر الآخرة إزالتها واستحالتها. بيد انهُ من المعقول ان يكون قانون الوراثة اورثهُ جراثيم دم الفرس وحكمتها ونظامها وأدبها، وضمَّ اليها الثقافة العربية فجاءت منازعهُ خليطاً تاماً، ومداركهُ متينة رصينة

اضف الى هذا ان مملكة بني العباس كانت سيدة الممالك، على ما كانت البصرة سيدة البلاد بصفائها وهنائها، وقوتها وعزتها، وربما كان العصر الذي نشأ فيهِ سهل بن هرون اجمل عصور التاريخ، والملك موحد من المغرب في شمالي افريقية الى حدود الشرق، وليس في الارض حكومة اسلامية غير الاندلس بيد بني مروان: لا غوائل ولا فتن في الداخل والخارج، يشتغل الناس على السلامة، و ينغبطون بما أوتوا في سلطان بني هاشم، وكلما نجم ناجم من العلويين او غيرهم كانت جيوش العباسيين تقضي عليهِ لساعتهِ، فضعف المنازعون الى منازعة اخوالف حبل السلطة. وغدت ممالك الشرق والغرب تتنافس في رضا خليفة العرب، والملك من ملوك آسيا واوربا اذا تيسر لقاصدهِ او سفيرهِ ان يتشرف بالحضرة حضرة بني العباس، يسعد و يعتزُّ في سلطانهِ، و يعدُّ ذلك نعمة حازها دون اقرانهِ

﴿ مذهبه واخلاقه ﴾ قيل ان سهل بن هرون كان شيعياً، وشيعة العراق في زمنهِ كانوا على الاطلاق معتزلة، ولم يؤثر عنهُ انهُ تنقص احداً من الصحابة الكرام، بل عرف بالاعتدال مع الاموات، اعتداله مع الاحياء، وما أثر عنهُ انهُ خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها اذ ذاك، ولاسيما في البصرة ودار السلام بغداد. واتهموهُ بانهُ كان من الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب، ولا يزون لهم

على العجم فضلاً ، واذا صحت هذه التهمة فمن العسف التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذي فُسِّر به بعد قرون

والشعوبي منسوب الى قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . ونشأ مذهب الشعوبية على الارجح بُعَيد عصر الخلفاء ، باشتداد قوة التجاذب والتدافع بين ارباب العصبيات ، وكان من أثر ذلك التفاخر بالجنس الذي جاء الاسلام بابطاله ، ولو كان للجنس ينفل المرء في الامة ، ما نزل سلمان الفارسي وصهيب الرومي و بلال الحبشي من الرسول تلك المنزلة العالية . والدين لا يفاضل الاَّ بالتقوى . على ان اعظم من كانوا يكيدون للعرب بالشعوبية السَّفلة والحشوة وأوباش النبط وابناء أكرة القرى ، لا أشراف العجم وذوو الاخطار واهل الديانة ، على ما رأى ابن قتيبة . اذا عرفت هذا فادفع عن سهل دعوى الشعوبية ، غير خائف ولا متلجلج ، فاعتداله يمنعهُ الاَّ ان يقدر لكل عنصر خصائصه ، وهو لم يعدّ رجلاً مذكوراً الاَّ بالاسلام ، والاخذ عن علماء العرب ، ورُقِيّ في مظاهر الدنيا حتى وصل الى أعظم خلماء العباسيين هرون الرشيد وعبد الله المأمون . وكان بفضل العلم احد أئمة البيان والحكمة في الامة العربية ، ودعي لحكمته وعقله بزر جمهر الاسلام . و بزر جمهر وزير انو شروان العادل ، من ملوك آل ساسان ، اشتهر بالعدل والحكمة

وصفهُ الجاحظ فقال : كان سهل سهلاً في نفسه ، عشيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيداً من الفدامة (العِيّ) ، معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يُقضي لهُ بالحكمة ، قبل الخبرة ، و برقة الذهن ، قبل المخاطبة ، و بدقة المذهب ، قبل الامتحان ، و بالنبل ، قبل التكشف (الظهور) . وكان الجاحظ مازجهُ وثافنهُ . وقيل للعراقي ولعلهُ ابراهيم ابن ذكوان كاتب الهادي ووزيره : بينك و بين سهل بن هرون صداقة فانعتهُ لنا كي نعرف فقال : هو كالخير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، ان حدث لم يكذب ، وان مُزح لم يفضب ، كالغيث اين وقع ، نفع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالارض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور للنفس ، وناقع لغلة من أحرّ اليه ، وكالظواء الذي تقطف منهُ الحياة بالتنسم وكالنار التي يعيش بها المقرور ، وكالسماء التي قد حسنت باعناق النور اه صورتان جميلتان في وصف سهل صوّرهما مصوران مبدعان ، عاشا بقربه وفتنهما بخلقه وخُلُقه

واتهموا سهل بن هرون بالبخل واوردوا لهُ قصصاً ونوادر ، وعدهُ الجاحظ من « متعاقلي البخلاء واشحّاء العلماء » قال : ما علمت ان احداً جرّد في البخل كتاباً الاَّ سهل

بن هرون وابا عبد الرحمن الثوري . والبخل في الفرس غالب في الجملة ، غلبة الكرم على طبائع العرب . فاقتضى ذلك التفريط الذي رآهُ سهل في تبذير العرب ، ان يدلي لقومهِ بآرائهِ المفرطة في الاقتصاد والامساك . وما شرهت قط تفريط الا والى جانبهِ إفراط . وربما كان اتهامهُ بالبخل مبالغاً فيهِ تراد بهِ النكتة والنادرة

حكى الجاحظ قال لقي رجل سهل بن هرون فقال : هب لي ما لا ضرر بهِ عليك فقال : وما هو يا اخي . قال : درهم . قال : لقد هوَّنت الدرهم وهو طابع الله في ارضهِ لا يحصى ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المئة ، والمئة عشر الالف ، والالف دية المسلم ، ألا ترى الى اين انتهى الدرهم الذي هونتهُ . وهل بيوت الاموال الاَّ درهم على درهم . فانصرف الرجل ولولا انصرافه لم يسكت

وحكي دعبل الخزاعي الشاعر قال : أقمنا يوماً عند سهل بن هرون ، وأطلنا الحديث حتى أضرَّ بهِ الجوع ، فدعا بغدائهِ ، فأتي بصحفة فيها مرق تحتهُ ديك هرم ، فاخذ كسرة وتفقد ما في الصحفة ، فلم يجد رأس الديك ، فبقي مطرقاً ثم قال للغلام : اين الرأس قال : رميت بهِ قال : ولِمَ قال : لم أظنك تأكلهُ قال : ولِمَ ظننت ذلك فوالله اني لأمقت من يرمي برجله فكيف برأسه ، ولو لم أكره ما صنعت الاَّ للطيرة والفأل لكرهتهُ ، اما علمت ان الرأس رئيس يتفاءل بهِ وفيهِ الحواس الخمس ، ومنهُ يصيح الديك ، ولولا صوتهُ ما أريد ، وفيهِ فرقهُ الذي يتبرك بهِ ، وعينهُ التي يضرب بصفائها المثل فيقال شراب كعين الديك ، ودماغهُ عجب لوجع الكلية ، ولم أر عظماً قط أهشَّ تحت الاسنان منهُ ، وان كان بلغ من أجلك انك لا تأكلهُ ، فعندنا من يأكلهُ ، او ما علمت انهُ خير من طرف الجناح ومن رأس العنق ، انظر اين رميتهُ ، فقال : والله ما أدري قال : انا والله ادري ، انك رميت بهِ والله في بطنك ، فالله حسيبك

ولما صنف سهل كتابهُ في البخل اهداهُ الى الحسن بن سهل واستاحه ، فكتب اليهِ الحسن : قد مدحت ما ذمهُ الله ، وحسَّنت ما قبحهُ الله ، وما يقوم بفساد مماك صلاح لفظك ، وقد جعلنا ثواب مدحك فيهِ قبول قولك ، فما نعطيك شيئاً . والحسن بن سهل وزير المأمون كان فارسيًّا ايضاً ، ولكنهُ في الجود آية الآيات . والطبائع ارثية والنشأ والعادة دخل كبير فيها ، ومع كل هذا فقد صح من شعر سهل قوله :

وما العيش الاَّ ان تجود بنائل والا فقاء الاخ بالخلق العالي

ومن يقول هذا الشعر ، يقصد هذا المعنى ، لا يكون من البخل على ما وصفوا ، ومن افاد مالاً فادخرهُ الى الايام السود ، كان في احتياطهِ على مثال ابناء البلاد الباردة الذين قد يتخرون مؤونتهم سنتين وثلاثاً اما اهل البلاد الحارة فلا يفكرون الاَّ في اليوم الذي هم فيهِ على الاعم الأغلب من حالاتهم . وقال غولدسمير المجري : ان تمدُّح ابن هرون بالبخل ، نزعة من نزعات الشعوبية ، اراد بمدحهِ الحط من قدر العرب الذين جعلوا الكرم من مفاخرهم الوطنية

طريقتهُ في الكتابة وتآليفهُ كان رجلاً يفضلهُ الجاحظ ويصف براعتهُ وحصافتهُ ، ويحكي عنهُ في كتبهِ ، ويظهر إعجابهُ بهِ اذا ذكرهُ ، ويروي حديثهُ ومجالسهُ ، هو ولا شك المثل الاعلى في صنوف العلم والآداب ، بلغ الذروة فيما تفرد بهِ واشتهر بمعرفتهِ ، وكان اهل عصرهِ مجمعين على الاقرار بفضلهِ ، فلما يداخلهم الحسد لهُ فكان منقطع القرين في فنهِ ، نابغة في العلم الذي يمتُّ بهِ وناهيك بعالم كبير كالجاحظ وهو في البلاغة يجري مع سهل كنفرسي رهان ، وفي العلم والعقل المثل المضروب كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، فينسبهُ الى نفسهِ فلا يرى الاسماع تصغي اليهِ ، ولا الارادات تتم نحوهُ ، ثم يؤلف كما قال عن نفسهِ ، ما هو انقص منهُ مرتبة وأقل فائدة ، فينحلهُ عبدالله بن المقفع ، او سهل بن هرون او غيرهما من المتقدمين ، ومن طارت اسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ويسارعون الى نسخها . وطريقة سهل في كتابتهِ طريقة امير المؤمنين علي بن ابي طالب لا يتكلف لكلامهِ ، فلا يشاهد فيهِ الناقد اثر الشغل ، بل لا يكلف بغير ارسال النفس على سجيتها ، فهو وابن المقفع والجاحظ من غرار واحد . وقبل ان سهلاً كاتب سلاطين والجاحظ مؤلف دواوين . وكان كلامهُ نغمة موسيقية تعرف انتهاء جملتهِ من رنتها ، بعد ان ملكت عليك مشاعرك ، وأدخلت السرور على نفسك ، لا يخل بالاسجاع الاَّ اذا جاءت عفو الخاطر ، شأن بلغاء الصدر الاول . ولا يتعمد الجزالة الاَّ اذا اقتضى الموضوع ذلك ، وقلما خلا قولهُ من نكتة تُحمد لهُ وتحمل عنهُ . وكأنك في انشاء سهل تقرأ المعنى قبل اللفظ ، وما تنفع القوالب اذا لم يكن علم الكاتب يملي ، والمظاهر والدساتير مستملية . ففي اسلوبهِ تقرأ لتتعلم ، وفي غيرهِ تقرأ الفاظاً جميلة وقوالب محكمة ، وفي كلهِ الطيب تقع على إشباع المعاني ، وتقطيع الجمل ، والابلاغ في المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع ، وتفعل البلاغة فعلها في نفسهِ من طريق الاقناع والبرهان ، لا من مجرى التقفية والزخرف ، وتوازن الكلمات ورنة الفقرات

كان سهل يقول الشعر ، واكثر شعره مما أملاهُ قلبهُ ، في غرض خاص من اغراض المجتمع ، وعدَّهُ الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاخبار المدوَّنة . ولقبهُ مرة بالكاتب ، ولعل لقب الكاتب في شرفهِ أكبر من عالم . وذكرهُ ابن النديم في البلغاء وقال انهُ شاعر مقل ، وعدهُ في الشعراء الكتَّاب وقال انهُ كان ممن يعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم هو وعبدالله ابن المقفع وعلي بن داود كاتب زبيدة . وشعرهُ خمسون ورقة . اما الدهشة فني تآليفهِ لهُ ديوان رسائلهِ ، وكتاب النمر والثعلب ، وكتاب اسباسيوس (اسانوس) في اتخاذ الاخوان ، كتاب اسد بن اسد ، كتاب محجة العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن ابان في القضاء ، كتاب الفرس ، كتاب الغزالين ، كتاب ندود وودود ولدود ، كتاب الرياض ، كتاب ثعلة وعفراء (وفي رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة قلدهُ في ابوابهِ وامثالهِ وقال المسعودي يزيد عليهِ اي على كليلة ودمنة في حسن نظمهِ وقد صنفهُ للمأمون . ومن تآليفهِ كتاب الهزلية والخزوي ، كتاب الواسق والعذراء الى غير ذلك من المصنفات التي لم تبق الايام ويا للأسف على واحد منها فيما علمنا ، ومنها ما عارض بهِ كتب الاوائل ، فجمعت الى الحكمة الفائقة البلاغة السرية الغريبة

ولا تعجب اذا رأيت بضعة من تآليف سهل في القصص والاسمار ، فان من الناس من يتعلم بالاحتيال عليهِ ، وصعب عليك ان تلقنهُ الثقافة العالية والاخلاق الفاضلة ، الاَّ في قالب يميل اليهِ بجملتهِ ، ظاهرهُ هزل وإمحاض ، وباطنهُ تعليم وإرشاد ، ومن اجل هذا كان هذا اللون من الادب ، مما يلذ المطالع ويفيدهُ علماً ، ويلقي عليهِ حكمة بالغة على نحو ما يفعل كبار القصصيين من اهل المدنية الحديثة . وكان حظ ابن المقفع في هذا الباب أجزل ، لان كتابهُ كليلة ودمنة الذي عربهُ من البهلوية اشتهر اكثر من اشتهار ثعلة وعفرة ، أو غير ذلك من الاوراق التي كسرها على القصص ، ولا تدل اسماء كتبهِ على انهُ كتب في موضوع أشبه بديني الفهم الاَّ كتابهُ في القضاء ، اما كتابهُ في تدبير الملك والسياسة فدليل على انهُ قرن العلم بالعمل في هذا الفن السهل الصعب

دمشق محمد كرد علي